أثر الاستنجاد بمنظومة
القيم في إرساء وعي وتشريع بيئي

د/ محمد سنيني

جامعة البليدة2

الملخص:

تحذيرات صرخ بها خبراء المناخ بندوة عقدت باستوكهولم 27 سبتمبر 2013؛ والتي صُدّرت بعنوان عريض في الوسائط الإعلامية المختلفة"PLANET ON RED ALERT"؛ وقد حذر هؤلاء الخبراء أن تلك التغيرات ستحدث أضرارا جد جسيمة بالبيئة؛ جفاف وفيضانات وكوارث في الدول الفقيرة، وحتى الدول الغنية لن تسلم من تلك التغيرات؛ فمدنها الساحلية ستصبح عرضة لأن تغمر بمياه البحار والمحيطات.

إن شريعتنا الإسلامية بمنظومتها الأخلاقية قد أرست نظاما يكفل للبيئة وجودها من جهة، وحمايتها من جهة أخرى.

إننا نرمي إلى بيان:

1- رصد وتلمس القيم الأخلاقية في النصوص الشرعية، والاجتهادات الفقهية المتعلقة بالبيئة.

2- مدى أثر تحفيز المشاعر والوجدان والضمير الإنساني بالحقنات الأخلاقية في حماية البيئة والمحافظة عليها.

Résumé

Des avertissements ont été lancée récemment a Stockholm, au colloque internationale sur le changement climatique tenue le 27 Septembre 2013, publié en gras, dans différents médias sur le thème : " PLANET ON ALERTE ROUGE ".

Selon les experts, ces changements ont des répercussions néfastes sur la sécurité alimentaire, la sécheresse et les inondations.

L'éthique islamique de la charia a mis en place un système parfait, pour assurer l'environnement et son existence, d'une part, et sa protection d'autre part.

Dans cet article, nous visons à:

1 – Explorer l'étiques et les valeurs morales dans les textes, et la jurisprudence religieuses relatives à l'environnement.

2 – Évaluer et apprécier les valeurs de l'éthique environnementale, et ces répercussions sur la protection, et la conservation de l'environnement.

مقدمة:

صحة كوكبنا في خطر، بيئتنا، مياهنا، محيطاتنا، بحارنا، أنهارنا، هواؤُنا، عالم الحيوان، وعالم النبات؛ الكل يتعرض لمزيد من الأضرار في كل يوم.

صحيح أن ثمة التفاتة غير مسبوقة لتلك التهديدات؛ تحذيرات من الخبراء أطلقت، تشريعات سُنّت، معاهدات أبرمت، بل أصبح للبيئة وزارتها، أحزابها، قانونها الخاص، ومنظماتها المحلية، والإقليمية والدولية تدافع عنها، وتسعى إلى رعايتها، وتحسيس شرائح المجتمع على اختلاف مستوياته بعواقب تلك الأضرار.

ومع كل ذلك، فإن التلوث بكل أشكاله يزداد، ولا ينقص، ما زالت البيئة مطوقة بانتهاكات لا قبل لها بها، فدرجة حرارة الأرض ترتفع، والتغير المناخي المفاجئ يبعث بإنذاراته لنا ولكوكبنا؛ ولأن اللامبالاة هي سيدة الموقف تقودنا إلى إلحاق الأذى بأرضنا، وبكل ما فيها.

هل من كابح لكل ذلك الأذى؟، هل من هبّة واعية توقف تلك الانتهاكات؟، هل من صرخة مدوية تعيد لكوكبنا، ولبيئتنا وضعه الطبيعي؟؛ وضعا يكون عنوانه الكبير: العيش في بيئة سليمة، آمنة، وخالية من الأخطار.

إن الأزماتِ التي يتعرض لها مناخنا وبيئتا لا تقل خطرا عما يتعرض له الاقتصاد العالمي من هزات واضطرابات، وما يكابده من اختلالات، بل ومن صدامات مجتمعية، وفي سبيل التخفيف من آثار الأزمة المالية العالمية، ورسم نظام اقتصادي جديد يحمل مناعة لأي هزات محتملة تعالت أصوات من كبار صناع القرار وخبراء الاقتصاد إلى ضرورة تلقيح الاقتصاد العالمي بجملة من المبادئ الأخلاقية، والتفتح على الشرائع السماوية، وفي مقدمتها شريعتنا الغراء.

إن ذلك التلقيح وذلك التفتح لا بد أن ينتقل بنفس اللهجة، وبنفس القوة والوتيرة، وربما أكبر من ذلك إلى معالجة أمننا البيئي، ليترسخ في وجدان وذاكرة أجيالنا: بأنّ الأرض لها حقوق علينا؛ حقوق أملتها شريعتنا، والقيم الإنسانية المشتركة، إنه بالقدر الذي نوفي للأرض حقوقها علينا بالقدر الذي نرث به أمننا البيئي.

إن المنظومة التشريعية والقانونية في المجال البيئي على وجه الخصوص لا تؤتي أكلها إلا إذا صبغت بمنظومة أخلاقية، وستبقى تلك القوانين والتشريعات حبرا على ورق ما لم تحتجن في ثناياها ما يحرك ويهز الضمائر والوجدان والمشاعر.

إن القيم الإنسانية المشتركة التي تخاطب الوجدان، والضمير قد تكون فيها نجدة لبيئتنا وكوكبنا؛ قِيَمٌ تصاحب التشريعات، وتلج المعاهدات، وتلف بها التحذيرات؛ قِيَمٌ يربى عليها النشء أولا في الأسرة، في المدرسة، في دور العبادة، ولتكن وسائط الإعلام المختلفة هي الحاملة للوائها.

إن من المعاني السامية المحفزة للمحافظة على بيئتنا: الشكر للمنعم بها سبحانه، أداء أمانة الاستخلاف، الإحسان والرحمة بها، كف الأذى عنها، وتوقّي الإسراف في التعامل معها.

فلنعقد لكل تلك المحفزات ثلاثة مطالب:

الأول: الشكر والأمانة.

الثاني: الإحسان والرحمة.

الثالث: كف الأذى وتوقي الإسراف.

ولتحتضن ثناياها مالآتها، وآثار تفعليها في صون البيئة ودفع الأخطار المحدقة بها، ولتذيل بخاتمة فيها تلخيص وتوصيات، ورؤية استشرافية لمستقبل بيئتنا.

المطلب الأول:

الشكر والأمانة

أولا: الشكر:

يأتي الشكر في مقدمة الْقِيّمِ التي تستحضر في مقابلة نعم الله وآلائه التي لا تحصى؛ يقول سبحانه:﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(18)**﴾(النحل)، ومع كل ذلك فإنه سبحانه لسعة غفرانه ورحمته يرضى منا باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير، ويقول أيضا:﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10)**﴾، كما أنه جلت قدرته يعلم طبيعة تكويننا، ومدى جحودنا لنعمه وعدم قدرتنا على الوفاء بشكر كل آلائه ؛ فيقول تعالى:﴿**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)**﴾(إبراهيم).

إن قوله سبحانه:﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ ورد في سياق تعداد نعمه سبحانه حتى سميت سورة تلك الآية بسورة النّعم؛ فذكر جلت قدرته في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها مع تأكيده سبحانه على تسخيرها لنا؛ فيقول سبحانه:﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(3)خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ(4)وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6)وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(7)وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8)وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(9)هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10)يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(11)وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(12)وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(13)وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(14)وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(15)وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(17)**﴾.

إن عناصر البيئة الرئيسة جلبت في تلك الآيات من ماء ونبات وحيوان، ومن ظواهر طبيعية ومن نواميس كونية، وتكررت فيها مقاصد خلقها من التسخير والاهتداء بها على وحدانيته سبحانه وكمال قدرته.

كل ذلك التسخير لتلك العناصر، وكل ذلك الامتنان يحمل ذوي العقول والفكر على شكر المنعم بها سبحانه والثناء عليه بجميل الصفات، ومن الشكر الوقوف في وجه كل من يعبث بتلك العناصر، ويهدد حياة كوكبنا، ومن جهة أخرى أن يوضع ذلك التسخير في نصابه وفي حده المعقول بالمحافظة عليها وحمايتها من كل ضرر[1]؛ فإن منزلة الشكر من أعلى المنازل؛ فهو غاية الرب من عبده؛ يقول تعالى:﴿**وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(172)**﴾(البقرة)، ويقول:﴿**وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ(152)**﴾(البقرة)، ويقول سبحانه:﴿**وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(17)**﴾(العنكبوت)، وإن من قواعده أن

تعترف بنعمه سبحانه وتثني عليه بها، وأن لا تستعملها فيما يكره[2]؛ فإن من شكر النعم هو استخدامها فيما خلقت له؛ وهو ما يعين الناس على تحقيق أهدافهم الدنيوية والأخروية؛ وهو الذي يؤدي إلى حفظ النعم، بل زيادتها ونمائها وفق سنن الله تعالى[3].

---

1 – فؤاد عبد اللطيف السرطاوي، **البيئة والبعد الإسلامي** (عمّان: دار الميسرة، 1999)، 39.

2 – محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1999)، 184/2.

3 – يوسف القرضاوي، **رعاية البيئة في شريعة الإسلام** (القاهرة: دار الشروق، 2001)، 34.

إن ذلك التسخير لا يقف عند ذلك الحد، بل يعم الأرض جميعا والسماوات؛ يقول سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(65)**﴾، ويقول عز وجل:﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾(البقرة:29)؛ ويقول تعالى:﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(13)**﴾(الجاثية)، ويقول سبحانه:﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ(20)**﴾(لقمان).

وتُستدعى وتستصحب الدعوة للشكر في مقابلة منّته سبحانه وسعة فضله لما أغدق علينا من مجمل عناصر البيئة وظواهرها الطبيعية؛ يقول سبحانه:﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(33)وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ(34)لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(35)**﴾(يسن)، ويقول عز وجل:﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(71)وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(72)وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ(73)**﴾(يسن)، ويقول تعالى:﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(46)**﴾(الروم)، ويقول سبحانه:﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(12)**﴾(فاطر)، ويقول تعالى:﴿**اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(12)**﴾(الجاثية)، ويقول جلت قدرته:﴿**أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ(68)أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ(69)لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ(70)**﴾(الواقعة)، ويقول تعالى:﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(73)**﴾(القصص).

أَمِنْ الشكر أن تقابل تلك النعم بالإفساد؟، كلا والله؛ يقول سبحانه:﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ(205)**﴾(البقرة)، ويقول عز وجل:﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(74)**﴾(الأعراف).

أَمِنْ الشكر أن يلوث باطن الأرض بالنفايات النووية؟

أَمِنْ الشكر أن نسعى جاهدين لاستخراج الوقود الصخري من نفط وغاز دون أخذ الاحتياطات اللازمة والكفيلة بحماية المياه الجوفية من كل تكدير؟، وقد نبه صلى الله عليه وسلم على اجتناب أدنى تلويث للابتعاد على ما هو أكبر منه؛ فقال:«**إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء**»[1]، قال الحافظ ابن حجر:"هذا النهي للتأديب لإرادة المبالغة في النظافة؛ إذ قد يخرج مع النفس بصاق أو مخاط أو بخاري رديء؛ فيكسبه رائحة رديئة؛ فيتقذر هو أو غيره عن شربه"[2]، كما أن السنة نصت على اتقاء أشكال من الملوثات ليقاس عليها ما يدخل في معناها؛ من ذلك حديث«**اتقوا اللعانين.قالوا: وما اللّعّانان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم**»[3]، وحديث: «**اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في**

1 – محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح**، (بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ)، رقم:153، 253/1.

2 – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ)، 253/1.

3– مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **الجامع الصحيح**، (الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1998)، 131.

الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[1]، والذي يتحصل من جملة هذه الأحاديث ست مواضع منهي عن التبرز فيها: قارعة الطريق والظل والموارد ونفع الماء والأشجار المثمرة وجانب النهر.

أَمِنْ الشكر أن يلوث هواء كوكبنا بانبعاث CO2 ؟؛ وقد بلغ في سنة 2013 مستوى قياسيًّا ما محصله 40 مليار طن حسب الحصيلة السنوية لـ"Global Carbon Project(GCP)"[2].

كما أن انبعاثات الكربون إذا لم يحد منها خلال 15 سنة أخرى، فقد تتضاعف التكاليف الأولية للحد من الاحترار العالمي ثلاثة أضعاف[3].

إن ذلك التلوث حسب تقرير لمنظمة الصحة العالمية نشر في أواسط شهر أكتوبر 2013 يفيد أنه كان سببا في سرطان الرئة، وأن قرابة 133 ألف نسمة توفوا في سنة 2010 باستنشاقهم للهواء الملوث، بل أكثر من ذلك فقد ذكرت المنظمة العالمية للأرصاد الجوية حسبما ذكر الموقع المتخصص/http://www.futura-sciences.com في2013/10/09 أن التلوث الجوي يودي بحياة 2،3 مليون نسمة كل سنة، وأنه يتسبب في أمراض قلبية عدة، وبعد هذا التقرير بأيام سارع الاتحاد الأوروبي إلى ضرورة إيجاد ميكانيزمات تحد من انبعاث CO2، وتخفيف انبعاثه من المركبات من 120 غرام/كيلومتر إلى 95 غ/كلم بحلول 2020.

كما أن فرنسا سارعت منذ سنة2008، وللتخفيف من انبعاثCO2 إلى تشجيع اقتناء المركبات الأقل دفعا لهذا الملوث؛ وذلك بإحداث ما اصطلح عليه"Bonus écologique"، ونظرا للتكلفة الباهظة لهذا المشروع؛ والذي بلغ 1,45 مليار أورور خلال خمس سنوات، حازت السيارات الكهربائية والهجينة الأفضلية في ميزانية 2014[4].

أَمِنْ الشكر أن يصل تلوث الهواء بالجسيمات الاصطناعية الناجمة عن المصادر البشرية؛ كانبعاثات السيارات ومحطات الطاقة؛ والذي أدت إلى وفرة الهباء الاصطناعي إلى حدّ أن يُبدِّل عكس السحاب لأشعة الشمس؟؛ فيحرم

كوكبنا من دفء ضوء الشمس[5].

أَمِنْ الشكر أن نستمر في زيادة ارتفاع الاحتباس الحراري؟؛ والذي دفع خبراء المناخ بندوة عقدت باستوكهولم في 27 سبتمبر 2013 إلى إطلاق تحذيرات صُدّرت بعنوان عريض في الوسائط الإعلامية المختلفة"PLANET ON RED ALERT"؛ وقد ورد في تلك التحذيرات أنه: في2013 ارتفعت نسبة تدخل الإنسان في حدوث الاحتباس الحراري إلى 95% بعد أن كانت 90% في 2007، و66% في 2001، كما أنه في سنة 2100 سترتفع درجة الأرض ب4,8درجات، وسيزيد منسوب مياه البحار والمحيطات ما بين 26 إلى 82 سنتمتر، وقد حذر هؤلاء الخبراء أن تلك التغيرات ستحدث أضرارا جد جسيمة من جفاف وفيضانات وكوارث في الدول الفقيرة، وحتى الدول الغنية لن تسلم من تلك التغيرات؛ فمدنها الساحلية ستصبح عرضة لأن تغمر بمياه البحار والمحيطات[6].

---

1 – أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، **السنن** (الرياض: بيت الأفكار الدولية، بدون تاريخ)، 28.

2 – www.globalcarbonproject.org، تاريخ المعاينة: 2013/11/19.

3 – مجلة NATURE–الطبعة العربية–، العدد 14(نوفمبر، 2013): 15.

4 – www.dossierfamilial.com ، تاريخ المعاينة:2013/10/31.

5 – http://www.nature.com/nature/journal/v502/n7472/full/502413e.html، تاريخ المعاينة:2013/12/04.

6 – www.lemonde.fr، تاريخ المعاينة:2013/09/27.

أَمِنْ الشكر أن نشارك في تغيير مناخنا تغييرا لا عهد لنا به؟، وما زال إعصار الفلبيين في نوفمبر 2013، وما خلّف من آثار مدمرة على الحرث والنسل حاضرا في الأذهان؛ والذي نعتته الأمم المتحدة بأنه تحذير للكرة الأرضية من التغير المناخي.

أَمِنْ الشكر أن نسكت لما يحدث لمعالم الأرض وتضاريسها من انتهاكات؟؛ كما هو حاصل للمحيط المتجمد، وللغابات، وقد وبخ النبي صلى الله عليه وسلم تلك التصرفات؛ فقال: «.... **ولعن الله من غيّر منار الأرض**»[1]، وفي رواية:«...**ملعون من غيّر تخوم الأرض**»[2]؛ أي حدودها وأعلامها؛ مثل أنهارها وبحارها، وغاباتها وجبالها[3]، ومعالمها التي يُهتدى بها، ويُحفظ بها تنوعها وتوازنها البيئي، ومن معالمها؛ سقفها من فضائها الخارجي، وطبقة أوزنها، وتضاريسها الطبيعية.

إن ذلك التلوث بكل أشكاله، وذلك الانتهاك لمنارات الأرض ومعالمها يدخل في كفران نعمة التسخير وما يستدعيه من شكر لا يستبعد أن يدخل في قوله تعالى:﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(56)**﴾(سورة الأعراف)[4]، كما لا يستبعد أن يتناوله قوله سبحانه:﴿**إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا(117)لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا(118)وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا(119)**﴾(النساء)، فتغيير خلق الله في الآية الأولى يحمل على عمومه؛ قال ابن عطية في هذه الآية:"وملاك تفسير هذه الآية: أن كل تغيير ضار فهو في الآية، وكل تغيير نافع فهو مباح"[5].

إن من صور شكر نعمة التسخير أن نسعى لإحياء الأرض، وعمارتها؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم:«**من أحيا أرضا ميتة فهي له**»[6]، وقال صلى الله عليه وسلم:«**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، يغرسها، فليفعل**»[7]، وفي هذا أكبر دليل على مدى تشوف الشرع الحنيف إلى عمارة الأرض، وديمومة عناصرها البيئية، ويؤكده قوله صلى الله عليه وسلم:«**ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**»[8]، كما أن كل الدواب سواء مما يتملك أو لا يتملك داخلة فيه، وعلة الخير المتعدي تقوي إرادة العموم[9].

ولتعميم ذلك الإحياء حمل بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم:«**من أحيا أرضا ميتة فهي له**» على العموم؛ فيدخل فيها الذمي، وكل من له حق المواطنة[10]، وبدون إذن الحاكم[11]، وزاده تأكيدا اتفاق جماهير الفقهاء على مشروعية إحياء الموات

1- مسلم، **الجامع الصحيح**، 131.

2- أحمد بن حنبل، **المسند**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1995)، 3/819-820.

3- ومن ذلك ما قامت به منظمة تعني بالبيئة بألمانيا بأن أجبرت شركة قامت بإنشاء طريق سيار بعد أن غيرّت ملامح جبلين ملتصقين؛ أجبرتها على بناء جسر يربط بين ما تبقى بين الجبلين لغرض أن تمر الحيوانات بين ضفتي الجبلين، كما كانت تفعل سابقا.

4 - القرضاوي، **رعاية البيئة**، 29.

5 - عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001)، 2/115.

6 - البخاري، **الجامع الصحيح**، 5/18.

7 - أحمد بن حنبل، **المسند**، 20/296.

8 - البخاري، **الجامع الصحيح**، 5/3؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 635.

9 - عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي، **بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها شرح مختصر صحيح البخاري**، (بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ)، 4/159-160.

10 - أحمد بن إدريس القرافي، **الذخيرة** (بيروت: عالم الكتب، بدون تاريخ)، 5/158-159.

11- القرافي، **الذخيرة**، 6/156-157؛ ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، 5/18.

والمزارعة والمغارسة والمساقاة، كما أنهم نصوا على أن من أحيا مواتا، وعجز عنه؛ فإن ذلك يوجب إخراجه من يده، ولا يمنع منه عامة المسلمين؛ فيبقى عاطلا، وليس كملكه[1] ، وقضى به عمر رضي الله عنه على بلال رضي الله عنه[2]، كما ذهب بعضهم إلى إجبار إمرار الماء في أرضه ليسقي به أرض جاره[3]، قال ابن الرامي: "ولا ينبغي لمن له أرض بيضاء أن يمنع جاره أن يجري الماء في أرضه؛ لأنه مما لا يضره، وينفع جاره"[4]، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك في سبيل ذلك الإحياء لما حكموا في"الرجل يكون له ماء يسقي به، وفيه فضل عنه، فيغرس قوم غرسا على فضل ذلك الماء بعطيته منه، فيريد صاحب الماء أن يقطعه عنه، فقالوا: ليس له ذلك"[5].

ثانيا: الأمانة:

إن من أعلى الوظائف التي خلق الإنسان لأجلها وظيفة الاستخلاف؛ يقول سبحانه:﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(30)**﴾(البقرة)، ويقول تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا(39)**﴾(فاطر)، ويقول عز وجل:﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(165)**﴾(الأنعام، ويقول أيضا:﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62)**﴾(النمل).

إن استخلاف الإنسان يعني تحميله جملة من الفضائل ؛كالمسؤولية والحرية، والتلاؤم مع سنن الله ونواميس كونه، كما أنه عز وجل أفصح عن معنى الاستخلاف بإضافة مفهوم الأمانة عليه؛ يقول تعالى:﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72)**﴾(الأحزاب).

إن التناغم مع سنن الله ونواميس كونه، ومراعاة أداء الأمانة في وظيفة الاستخلاف؛ كل ذلك يستدعي صيانة كوكب الأرض، وما فيه من عناصر بيئية، ويحتم كذلك حمايتها من كل ضرر.

إنه بالقدر الذي تتلاءم فيه طبيعة الإنسان مع السنن الكونية وتسخرها لخدمته، بالقدر الذي تظهر فيه علامات السلامة العامة، والنظرة السليمة، والعيش تحت مظلة من السلوكيات الخلاقة[6].

إن تولية ظهرنا لكلية المحافظة على الكون بمفهومه الواسع، وتفاعلنا غير الصحيح مع الكون، وما تعانيه البشرية من تلوثات، ومجاعات، وتهديد بنفاد المسخرات الإلهية – حسب البناء الفلسفي للنظرية الاقتصادية المادية – إنما هو نتاج نقضنا لتلك الأمانة.

---

1 – أحمد بن يحي الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إقريقية والأندلس والمغرب** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981)، 1981)، 35/8.

2 – أبو عبيد القاسم بن سلام، **الأموال** (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1981)، 368.

3 – وعليه قضاء عمر رضي الله عنه للضحاك بن خليفة على محمد بن مسلمة. انظر: مالك بن أنس، **الموطأ** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997)، 34/4؛ عبد الله الدّاودي، "كتاب الإعلان بأحكام البنيان تصنيف المعلم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي، شهر بابن الرامي التونسي"، **مجلة الفقه المالكي والتراث القضائي بالمغرب**، الأعداد: 2، 3، 4 (سبتمبر 1982)، 410.

4 – الدّاودي، "كتاب الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي"، 410.

5 – الونشريسي، **المعيار**، 19/8.

6 – السرطاوي، **البيئة والبعد الإسلامي**، 12.

إن الأمانة ليست مقصورة على حفظ الودائع، بل هي واسعة الدلالة؛ فهي ترمز إلى معان شتى، مناطها جميعا شعور المرء بتبعته في كل أمر يُوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئوول عنه[1].

إن ذلك المناط يُدخل في تلك المعاني الأرض بكل ما فيها من ماء، وهواء، ونبات وحيوان، ظاهرها وباطنها؛ فكل عناصرها عواري استأمن الله الناس عليها، طلب منهم أن يحفظوها، وينتفعوا بها ضمن المنهج الذي رسمه لهم مالكها الحقيقي، فإذا تصرفوا بها على غير ما أوصى به الله، فقد خانوا ما استأمنهم الله عليه[2].

إن من العواري والودائع أن يحفظ للأرض تنوعها وتوازنها البيئي، ولعل في قوله تعالى:﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ(40)**﴾ تلميح قوي إلى ذلك، فإن كلمة﴿**كل**﴾ تفيد التعميم؛ أي احمل في السفينة من كل شيء، تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات، حتى الخنزير كان ضمن ما حمله نوح عليه السلام؛ لأن كل كائن له مهمة، وليس مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان[3]، هذا فضلا على ضرورة مراعاة نواميس الأرض، وما أودع الله فيها من ظواهر وسنن كونية، كما أن في **نهيه صلى الله عليه وسلم عن إخصاء البهائم**[4] تنبيه على ضرورة استمرار ذلك التوازن، وتقوى بقوله صلى الله عليه وسلم من رواية أخرجها الإمام أحمد في مسنده[5]:«**من أحيا أرضا ميتة، فله منها–يعني أجرا– وما أكلت العوافي منها، فهو له صدقة**»، –العوافي من الوحش والطير والسباع–.

1 – محمد الغزالي، **خلق المسلم**، (القاهرة: نهضة مصر، 2005)،41.

2 – عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، (دمشق: دار القلم، 1999)، 656/1.

3 – محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، (القاهرة: مطابع أخبار اليوم، بدون تاريخ)، 6471/11.

4 – أحمد بن حنبل، **المسند**، 388/8.

5 – أحمد بن حنبل، **المسند**، 170/22.

المطلب الثاني
الإحسان والرحمة

إن شخصية الفرد المسلم المندفعة بغريزة التطلع إلى المعرفة؛ فإن أول ما يواجهها هذا الكون، وما فيه من موجودات، فيثير فيها داعية الفكر؛ فتجعل تلك الموجودات على اختلاف أصنافها مجالا للحركة الفكرية، فبعد تصنيفها، والتعرف على خصائصها، والتساؤل على أسبابها حتى تربط بعضها بعض بأوجه مختلفة؛ فينشأ عن كل ذلك ترابط بين تلك الكائنات وشخصية الفرد على نسبة واحدة[1].

إن ذلك الترابط سرعان ما يرقى إلى درجة الانسجام مع الكون كله، كيف لا، والفرد المسلم يرى فيه أنه آية من آيات الله، وأنه حافل بالنعم، وأنه مسخر له وفي خدمته، كما يرى فيه أنه يشترك معه في كونه من مخلوقيته لله تعالى؛ يسجد لله، ويسبحه[2]، بل عناصره لها نظامها وقانونها، ولها مهمتها، ودورها في الطبيعة؛ إنها أمم؛ قال تعالى:﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾(الأنعام:38)، وقال صلى الله عليه وسلم:«**قرصت نملة نبيا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أنْ قرصتَك نملةٌ أحرقتَ أمةً من الأمم تُسبح الله**»[3].

إن تلك نظرة للكون لا ترمي بالكون في خانة أعداء الإنسان الذي يريد قهره، بل على العكس تجعل منه مصدرا لتنمية ذوقه الجمالي؛ يقول ربنا سبحانه:﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(32)**﴾(**الأعراف**)، ويقول تعالى:﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5)وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6)**﴾، إلى أن يقول من سورة نفسها:﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8)**﴾(االنحل)، ويستمر ذلك الشحن بالجماليات من سورة النعم؛ فيقول سبحانه:﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا(14)**﴾(آية:14)، ويقول سبحانه:﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(6)**﴾(الصافات)، ويقول تعالى:﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ(16)**﴾(الحجر)، ويقول أيضا:﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾(الملك:5).

إن ذلك الذوق الجمالي جعله القرآن مقدما حتى على المتاع؛ فقال عز وجل:﴿**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ**﴾(الرعد:17)، وفي اقتران الذوق الجمالي مع النفع الاقتصادي؛ كما في قوله تعالى:﴿ **فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا**﴾(النمل:60)، وقوله سبحانه:﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾(الحج:5)، وقوله جلت قدرته:﴿**وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ(10)**﴾(ق) رفع له، وتعلية من قيمته مع ما سلف من تقديمه على المتاع.

إن ذلك الذوق الجمالي، وما ناله من قيمة مضافة؛ والذي يغذي به الإنسان مشاعره ووجدانه؛ وهو يستمده من تدبره وتفكره في الكون وترابطه معه، ومن عناصره البيئية جدير بأن يجعل في معادلة اتجاه الحضارة؛ يقول مالك بن نبي:"إن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بالذوق الجمالي، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة..."، ثم صاغ هذه المعادلة: مبدأ أخلاقي+ذوق جمالي= اتجاه حضارة[4] .

---

1 – محمد الفاضل بن عاشور، **روح الحضارة الإسلامية**، (الرياض: دار العالمية للكتاب الإسلامي، 1992)، 27.

2 – القرضاوي، **رعاية البيئة**، 34.

3 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 154/6؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 922.

4 – مالك بن نبي، **شروط النهضة**، (دمشق: دار الفكر، 1986)، 101.

إذا الكون وبكل عناصره البيئية، وهو على خلقته التي فطر الله عليه، أو قل إذا كانت البيئة السليمة لها كل هذا الحضور في بناء أحد أهم تكوينات النفس الإنسانية، وكون ذلك طرفا في معادلة الإقلاع الحضاري ألا يُعض عليها بالنواجذ؟، ألا يرتقي ذلك الترابط بينها وبين الإنسان إلى منزلة المودة والمحبة!.

إن تلك المنزلة نطق بها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال:«**هذا أحد جبل يحبنا ونحبه** [1]؛ فأي أنس بالبيئة أو إيناس لها أوضح مما دل عليه هذا التعبير النبوي الجميل![2].

وتجذر ذلك الإيناس في حنين الجذع إليه صلى الله عليه وسلم[3]، كما أن في تكنيته لعبد الرحمن بن صخر بأبي هريرة رضي الله عنه؛ فكان يناديه بقوله:«**يا أبا هرّ**»، «**يا أبا هريرة**»[4]، وفي شكوى البعير له صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن جعفر، قال: **أردفني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خلفه ذات يوم، فأسر إلي حديثا لا أحدث به أحدا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لحاجته هدفا أو حائش نخل. قال: فدخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا جمل فلما رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم، فمسح ذِفراه، فسكت، فقال:«من رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل ». فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال:«أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؛ فإنه شكى إلي أنك تجيعه وتُدْئِبُه»**[5]، ففي كل ذلك إجلاء لعلاقة استئناس الحيوان بالإنسان كعكسها، وتتقوى تلك الرابطة في التسلي به[6]، وخاصة إذا بدأت في الصغر، وشب عليها؛ يشهد لذلك ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه؛ أنه قال: **كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْر، –وقال أحسبه فَطِيمًا– وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ:« يَا أَبَا عُمَيْر، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» نُغَرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ**[7].

كما أن ذلك الترابط وذلك الانسجام بين الإنسان وعناصر البيئة رفعتهما السنة النبوية بأن جعلت مكونات البيئة جارا للإنسان؛ كما هو ظاهر في رواية عنه صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال:«**نعم الجار البحر: هو الطهور ماؤه، الحل ميته**»[8]، **ميته**»[8]، بل إن الشرع راعى تلك الصحبة الكائنة بين الإنسان وبين عناصر البيئة؛ فرتب عليها طهارتها؛ **فقال صلى الله عليه وسلم في الهرة«إنها ليست بنجس، إنها من الطّوّافين والطّوّافات عليكم»**[9].

إذا كانت عناصر البيئة بكل ذلك الثقل في حياة الإنسان؛ إنها مُعلمه، إنها جاره، ومن الطوافين والطوافات عليه؛ إنها خادمه؛ إنها تؤنسه، ويؤنسها، بل تحبه، وتبكي عليه إذا فارقها[10]، ويُسقى بدعائها في الجفاف والقحط، كما في قوله صلى الله عليه وسلم:«**خَرَجَ سُليمانُ عَليه السّلامُ يَسْتَسْقي فَرَأَى نمْلَةً مُستلقيةً على ظهْرها رافعة قوائمها إلى السماء تقُولُ:**

---

1 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 6/86-87؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 538.

2 – القرضاوي، **رعاية البيئة**، 30.

3 – أحمد بن حنبل، **المسند**، 5/399-400.

4 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 9/517.

5 – أبو داود، **السنن**، 289. وقوله:«تدئبه»؛ أي تتعبه.

6 – علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، **شرح صحيح البخاري**، (الرياض: مكتبة الرشد، 2003)، 9/352.

7 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 10/582.

8 – يوسف بن عبدالله بن عبد البر القرطبي، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، (المحمدية–المغرب–: مطبعة فضالة، 1982)، 23/15.

9– أحمد بن حنبل، **المسند**، 37/211، وتقاس على الهرة باقي الحيوانات الأليفة مثل الكلب الذي يجوز اتخاذه ونحوه بجامع التطواف.

10 – محمد بن أحمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2006)، 19/123؛ الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 14/8964-8965 عند قوله تعالى من سورة الدخان:﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ(29)**﴾.

اللّهُمَّ إنا خلقٌ منْ خلْقِكَ ليْس بنا غِنى عنْ سُقياكَ، فقال: ارْجِعُوا فقد سُقيتم بدعوةِ غيركم»[1]، ألا تستحق تلك العناصر أن يكرمها، أن يحسن إليها، وأن يرحمها ويرفق بها، ويجتهد في صيانتها، وفي نمائها وحمايتها من كل ضرر!

إن ذلك الإحسان، وتلك الرحمة والرفق تجلت في نصوص نبوية، وترجمت أفعالا تنبض حضارة وإنسانية، وتعكس مدى أحقية عناصر البيئة على الإنسان السوي.

إن تلك النصوص حفزت داعي الإحسان والرحمة بأن رتبت عليها شكر الله ومغفرته، وكفرت بها ذنوبا عظاما؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:**كنا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فى سفر فانطلق لحاجته؛ فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها؛ فجاءت الحُمَّرة؛ فجعلت تفرش، فجاء النبى –صلى الله عليه وسلم– فقال «من فجع هذه بولدها، ردوا ولدها إليها»، ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال:«من حرق هذه »، قلنا نحن. قال«إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»**[2].

ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لحق ظهره ببطنه؛ فقال: « **اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**»[3]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:«بينما رجل يمشى بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له، فغفر له». فقالوا : يا رسول الله! وإن لنا في هذه البهائم لأجرا فقال :«في كل ذات كبد رطبة أجر»**[4]، والتصدير بـ"**كل**" علامة على انسحابه إلى كل الحيوانات[5]، وفي صحيح مسلم؛ قال صلى الله عليه وسلم:«**بينما كلب يُطيف بركية قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها، فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به**»[6]، بل بلغ الإحسان إلى الحيوان حتى في حالة ذبحه؛ قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم:«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»**[7].

كما أن السنة نهت عن كل صور العبث بالبهائم والتنكيل بها، وطرحت فاعلها في سلة المطرودين من رحمة الله؛ وما ذلك إلا لغياب معاني الرفق والرحمة؛ **كالنهي على أن تُصبَر**[8]؛ فعن ابن عمر رضي الله عنه: **أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا**»[9]، كما **نهت عن عن التحريش بينها**[10]، ونهت عن وسمها، وضربها في وجهها؛ فقد جاء عن جابر رضي الله عنه، قال:«**نهى رسول الله صلى**

---

1 – أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين** (بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ)، 325/1-326.

2 – أبو داود، **السنن**، 301.

3 – أبو داود، **السنن**، 289.

4 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 40/5-41؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 923.

5 – ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، 268/1؛ ابن أبي جمرة، **بهجة النفوس**، 155/1.

6 – مسلم، **الجامع الصحيح**، 923.

7– مسلم، **الجامع الصحيح**، 809-810.

8 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 642/9؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 810، و"أن تصبر"؛ أي تحبس لترمى حتى تموت.

9 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 643/9؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 810.

10 – أبو داود، **السنن**، 290.

الله عليه وسلم عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه»[1]، وفي رواية:**أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه حمار قد وسم في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه»**[2]، بل نهت عن لعنها؛ بوب مسلم في صحيحه: باب النهي عن عن لعن الدواب وغيرها[3].

ولما انعدمت الشفقة والرحمة جاء الوعيد جد شديد على تعذيب الحيوان، وقتله؛ ففي حديث ابن عمر رضي الله عنه، أن «**رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها؛ إذ حبستها؛ ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»[4].

إن فقهاء الشريعة راعوا تلك المعاني السامية من الإحسان والرحمة وجودا وعدما في حفظ الحيوان؛ فأوجبوا النفقة على مالكه، فإن أبى المالك للحيوان النفقة عليه أو عجز حكم عليه بإخراجه عن ملكه ببيع أو صدقة أو هبة[5]، وقد نص ابن عبد البر في كافيه على أنه:"يجبر الرجل على أن يعلف دوابه أو يرعاها إن كان في رعيها ما يقوم بها أو يبيعها أو يذبح ما يجوز ذبحها، ولا يترك يعذبها بالجوع وغيره"[6]، قال ابن عرفة:"لازم هذا القضاء عليه؛ لأنه منكر، وتغيير المنكر واجب القضاء به"[7].

وتعدى ذلك حتى إلى الشجر؛ فقالوا:"من كان له شجر ضيعها بترك القيام بحقها، فإنه يؤمر بالقيام فيها، فإن لم يفعل، فإنه مأثوم، ويقال له: ادفعها لمن يخدمها مساقاة لجميع الثمرة"[8].

ومن غريب ذلك ما ذكره الصاوي في أن الهرة العمياء تجب نفقتها على من انقطعت عنده حيث لم تقدر على الانصراف[9]، وهو موافق لما نقله البرزلي حيث قال:"ونزلت مسألة؛ وهي: أن قطّاً عَمِي، وفرغت منفعته؛ فاستُفْتِيَ فيها شيخنا شيخنا الإمام ابن عرفة؛ فأفتى: بوجوب إطعامه، وأن لا يقتل، وكذلك ما أيس من منفعته لكبَرٍ أو عيب"[10]، وارتفع دافع الإحسان والرحمة إلى درجة أن المقبل على الصلاة إذا خشي من استعماله الماء لصلاته عطش حيوان، ولو كلبا، ولو في المستقبل، أنه ينتقل إلى التيمم[11].

ولا تقف تلك المحفزات إلى هذا الحد، بل تجاوزت عتبة الإبهار والتميز والسبق؛ فصححوا الوصية للحيوان إذا فسرت بصرفها في علفه[12]، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك لما قالوا بصحة الوقف على الحيوان والوقف على الحيوان الموقوف عليه[1].

1- مسلم، **الجامع الصحيح**، 877.

2- مسلم، **الجامع الصحيح**، 877.

3- مسلم، **الجامع الصحيح**، 1043-1044.

4 - البخاري، **الجامع الصحيح**، 5/، 41؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 922.

5 - أحمد بن محمد الصاوي، **حاشية على الشرح الصغير للدردير** (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ)، 622/3.

6 - أبو عمر يوسف ابن عبد البر، **الكافي في فقه أهل المدينة** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987)، 299.

7 - أبو عبد الله محمد الحطاب، **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل** (دار الفكر، 1987)، 207/4.

8 - الحطاب، **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل**، 208/4.

9 - الصاوي، **حاشية الصاوي على الشرح الصغير**، 622/3.

10 - أبو القاسم بن أحمد البلوي البرزلي، **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002)، 645/1.

11 - أحمد الدردير، **الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك** (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ)، 266/1.

12 - أبو زكريا يحي بن شرف النووي، **روضة الطالبين** (الرياض: دار عالم الكتب، 2003)، 101/5.

كما شهد تاريخنا في بعض الحواضر الإسلامية ترجمة حية لذلك الإحسان، ولتلك الرحمة؛ فتجلى كل ذلك في تحبيسهم على الحيوان الهرم الذي تخلى عنه صاحبه، والوقف على القطط، وعلى العمياء منها، والمكسورة والجريحة يقدم لها الطعام والعلاج، وتعدى ذلك إلى المؤسسات الاستشفائية الوقفية حيث كانت تقدم العناية للحيوانات الجريحة أو المضرورة كطائر اللقلاق؛ فيداوى ويطعم، ومن صورها الباهرة: أن مدينة فاس عرفت بلادا موقوفة على شراء الحبوب برسم الطيور حتى تلتقطها كل يوم من المرتفع المعروف بكدية البراطيل عند باب الحمراء داخل باب الفتوح[2].

ولترسيخ ذلك الإحسان وتلك الرحمة إلى نهايتهما؛ شددوا القول عند فقدهما؛ فذكر ابن فرحون المالكي عن ابن القاسم حرمة التفرقة بين البهائم وصغارها في البيع [3]، كما منعوا أصحاب البهائم من إذايتها، والعنف عليها؛ كإثقالها بالأحمال التي لا تستقل بها، وإرهاقها في سرعة المشي بالضرب والزجر الشديد؛ فهذا منكر يجب تغييره، ولا حجة لهم في كونها من ملكهم[4]، ونص ابن أبي جمرة عند شرحه لحديثه صلى الله عليه وسلم:«**كلُّ سلامى من الناس عليه صدقة، كلَّ يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها –أو يرفع عليها متاعه صدقة–، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**»[5] على أن المحمول عليه لا يكلف ما لا يطيق؛ لأن الإعانة على ذلك لا تجوز[6]؛ لأن في ذلك تعاون على إسقاط الإحسان والرحمة، كما لاحظوا أنهما يتنافيان مع صيد الحيوان بقصد حبسه للفرجة عليه؛ فاعترى ذلك الصيد مع أنه مباح الحرمة[7].

إن ذلك الإحسان، وتلك الرحمة المنقطعي النظير بالبهائم لم يأتيا عن نظر مجرد، بل لما للبهائم من مرتبة في سُلّم المقاصد المرعية؛ فقد ضُمت تلك المرتبة إلى حفظ النفوس[8]؛ فقدموا بناء على ذلك حفظ الحيوان على حفظ المال؛ فقد نقل القرافي عن الطرطوشي في مسألة خوف أهل السفينة من الغرق، وأنهم لا يخلصون إلا بطرح ما فيها من الأثقال: أنه يبدأ بطرح الأمتعة ثم البهائم[9]، وركن إلى هذا القول العز بن عبد السلام[10]؛ فأنت ترى تقديمهم إلقاء الأموال قبل الحيوان؛ لما للحيوان من حرمة تسبق حرمة الأموال، وبلغ ابن أبي جمرة بتلك المرتبة إلى أوجها لما أدخل إحياء البهائم وإنقاذها عند شرحه لحديثه صلى الله عليه وسلم:«**أَنَّ رَجُلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ**»[11] في قوله تعالى:﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾(المائدة:32)[12].

---

1 – عبد القادر بن عزوز، "مدى مشروعية الوقف على الحيوان في الفقه الإسلامي"، **مجلة أوقاف**، العدد 16 (مايو 2009): 64.

2 – بن عزوز، "مدى مشروعية الوقف على الحيوان"، 67–68.

3 – برهان الدين بن فرحون، **درة الغواص في محاضرة الخواص**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985)، 240.

4 – الونشريسي، **المعيار**، 501/2.

5 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 132/6.

6 – ابن أبي جمرة، **بهجة النفوس**، 142/3.

7– أحمد بن غنيم النفراوي الأزهري، **الفواكه الدواني شرح على رسالة ابن أبي زيد القيرواني** (بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ)، 457/1.

8 – الونشريسي، **المعيار**، 501/2.

9 –القرافي، **أنوار البروق في أنواء الفروق**، (بيروت: عالم الكتب، بدون تاريخ)، 9/4.

10 – عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام** (بيروت: مؤسسة الريان، 1990)، 73/1.

11 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 178/1.

12 – ابن أبي جمرة، **بهجة النفوس**، 155/1.

المطالب الثالث
كف الأذى وتوقي الإسراف

إن دفع الأذى والضرر كلية من كليات شريعتنا؛ كلية تتقاسم مع القيم الإنسانية المشتركة؛ كلية تنبئ عن ذم الأذى؛ فتنهى عن إيقاعه ابتداء، وعن إيقاعه على وجه المقابلة لمثله؛ إنها تؤسس للتسامح؛ لأن يكون الفرد مُسالما، محتضنا للرفق في أمره كله؛ قال صلى الله عليه وسلم:«**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**»[1]، وفي رواية: «**يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**»[2]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع ينزع من شيء إلا شانه**»[3]، وقال أيضا:«**تحرم–النار– على كل قريب هين لين سهل**»[4]، وفي رواية بزيادة: «....**ليّن**....»[5].

إن قوله صلى الله عليه وسلم:«**لا ضرر، ولا ضرار**»[6]؛ وهو يؤصل لتلك الكلية الكبرى؛ كلية لا يختص مجالها بالفروع الفقهية، بل يتعداه إلى الحس الأخلاقي؛ كلية تعم كل التصرفات؛ فتدخل عناصر البيئة في هذه الكلية؛ فيمنع الإضرار بها، بل يجب كف الأذى عنها، وبذل ما يبقيها؛ وقد عول بعضهم، وهو يرى وجوب بذل الماء الفاضل عن حاجته مجانا لسقي بهائم وزرع غيره[7]؛ بحيث يفضي منعه إلى منع الكلأ على قوله صلى الله عليه وسلم:«**لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ**»[8].

إن كف الأذى عن البيئة يبدأ من تنقيتها وتطهيرها، وما لحق بها من أضرار، وقد يتلمس ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم:«**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخذه، فشكر الله له فغفر له**»[9]، يعضده حديث:«**الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**....»[10]، وحديث أبي برزة:«**قال: قلت: يا نبي الله! علمني شيئا، أنتفع به، قال: اعزل الأذى عن طريق المسلمين**»[11]، وما مر من قوله صلى الله عليه وسلم:«... **ويميط الأذى عن الطريق صدقة** ».

إن قوله تعالى:﴿**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ**﴾(هود:48) يشي بأن أذى عناصر البيئة من أمم الوحوش والطيور والحيوانات والدواب والنباتات، والسعي إلى المس بدورها وإلى التسبب بانقراضها يتنافى

1 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 449/10 ؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 893.

2 – مسلم، **الجامع الصحيح**، 1034.

3– مسلم، **الجامع الصحيح**، 1034.

4 – أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، **السنن**، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بدون تاريخ)، 654/4.

5 – أحمد بن حنبل، **المسند**، 52/7–53.

6 – أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، **السنن**، (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ)، 784/2.

7 – أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، **المغني شرح مختصر الخرقي** (الرياض: دار عالم الكتب، 1997)، 377/6–378؛ ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، 32/5.

8 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 31/5؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 640.

9 – البخاري، **الجامع الصحيح**، 118/5؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 1052، وفيه«**فأخرّه**».

10 – مسلم، **الجامع الصحيح**، 48.

11 – مسلم، **الجامع الصحيح**، 1052.

مع جملة﴿**وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ**﴾؛ فإن كلمة﴿**وَبَرَكَاتٍ**﴾ جاءت لتدل أن ما يحمله نوح من كل زوجين اثنين يحتاج إلى بركات الحق سبحانه ليتكاثر[1] تكاثرا طبيعيا ليقوم بدوره الأساسي في دورات الطبيعة والتوازن البيئي.

لقد تعاملت شريعتنا بشدة مع من يؤذي البيئة؛ كمن يقطع شجرا عبثا، أو لغير فائدة، أو يؤدي إلى إفنائها؛ فجاء عنه صلى الله عليه ويسلم، أنه قال: «**من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار**». سئل أبو داود عن معنى هذا الحديث، فقال: "هذا الحديث مختصر يعنى من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار"[2].

إن كف الأذى عن البيئة لم يغب عن وصية خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأمراء الجيش؛ هذا في الحرب، فكيف بحال السلم؛ حيث جاء فيها:"**وإني موصيك بعشر**...."، وذكر منها:"..**ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نحلا، ولا تغرقنه**..." [3].

لقد تفطن فقهاؤنا لذلك الأذى؛ فنص ابن رشد في مسألة القنوات والمراحيض والكراسي التي تصب في النهر:"الحكم بهذا الضرر واجب والقضاء به لازم، وعلى الحاكم أن ينظر في ذلك إن اتصل به الأمر بعد ثبوته عنده، ويأمر بتغيره"[4]، كما أن قاضيا بالقيروان في القرن الثامن منع الميازيب التي تسيل بماء الغسالات، وعزّر من لم يسدها، وشُهر به في الزقاق[5].

إن تلك التنقية، وذلك التطهير يتناول الغابات، والبحار، والمحيطات، والأنهار، والهواء، وباطن الأرض وظاهرها؛ إنها أصبحت مسارات للإنسان من جهة، ويضمن استمرارها والمحافظة عليها عدم حدوث هزات عنيفة في التغير المناخي، وعدم طرو تلوث يعصف بالأخضر واليابس من جهة أخرى.

إن كل أذى يلحق بيئتنا إلا وله تبعات قرب الزمن أم بعد؛ إن بعض التجارب النووية، وقد مر عليها أكثر من نصف قرن ما زالت آثارها السلبية على البيئة ماثلة للعيان، كما أن بعض تصرفاتنا التي لا نلقي لها بالاً؛ كرمي الأكياس البلاستيكية في الطبيعة أصبحت تشكل أذى للبيئة يستمر لقرون[6]؛ أذىً اعترى المحيطات، وأنهار العالم، مسببا فيضانات في مدن العالم النامي[7].

إن صحة كوكبنا بكل ما فيه مهددة بالنفايات؛ إن الشخص الأمريكي المتوسط يرمي ما يعادل وزنه من القمامة شهريا، ومع ازدياد سكان العالم، وميلهم أكثر إلى الحضر تضاعف إنتاج النفايات عشر مرات مقارنة بالقرن الماضي، وبحلول عام 2025 سوف يتضاعف حجم النفايات، لقد أصبحت النفايات من أكثر الملوثات للبيئة بما فيها غازات الاحتباس الحراري[8].
الحراري[8].

لا تقف تلك التهديدات لوحدها في وجه سلامة بيئتنا، بل ثمة تصرف مذموم غزا حياتنا، وعلاقاتنا مع بيئتنا؛ إنه الإسراف؛ لقد حذرت شريعتنا منه حتى في حال العبادة؛ فقد ورد **أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بسعد، وهو يتوضأ،**

---

1 – الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، 6486/11-6488.

2 – أبو داود، **السنن**، 562.

3 – مالك بن أنس، **الموطأ**، 577/1.

4 – الونشريسي، **المعيار**، 27/3-28، و441/6-442.

5 – الدّاودي، "كتاب الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي"، 384-386.

6 – www.vedura.fr، تاريخ المعاينة: 2013/12/04.

7 – دانيال هورنويج، پريناز بهادا–تاتا، وكريس كنيدي " يجب وقف نمو معدلات النفايات في هذا القرن"، **مجلة NATURE–الطبعة العربية–**، العدد 15 (ديسمبر 2013): 46.

8 – هورنويج، بهادا–تاتا، وكنيدي، "يجب وقف نمو معدلات النفايات"، 46.

فقال: «ما هذا السَّرَفُ يا سعد» قال: أفي الوضوء سَرَفٌ؟، قال:«نعم، وإن كنت على نهر جار»[1]**، وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الوضوء؟، فأراه ثلاثا ثلاثا؛ قال:«هذا الوضوء، فمن زاد على هذا، فقد أساء وتعدّى وظلم»**[2]، بإتلافه الماء بلا فائدة[3]، بل«**كان صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالمدّ، ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد**»[4]، وأنه«**صلى الله عليه وسلم توضأ، فأُتيَ بإناء فيه ماء قدر ثلثي المد**»[5]، وهذا كله يدل على توجيه توجيه

أمته، ولو في العبادة أن تجتنب الإسراف في هذا العنصر الحيوي، وهذه سابقة لما يعرف اليوم بـ"اقتصاد البيئة"[6].

---

1 - أحمد بن حنبل، **المسند**، 11/636-637.

2 - أحمد بن حنبل، **المسند**، 11/277؛ أبو داود، **السنن**، 38.

3 - أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، **عون المعبود شرح سنن أبي داود** (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، 1968)، 1/229.

4 - البخاري، **الجامع الصحيح**، 1/304؛ مسلم، **الجامع الصحيح**، 148.

5 - أبو داود، **السنن**، 34.

6 -جاء في الموقع المتخصص www.futura-sciences.com ، تاريخ المعاينة:2013/04/13:"

Comment économiser l'eau chez soi ?

Préoccupation vitale dans certains pays, l'accès à l'eau en France est en général facile et peu coûteux. Mais avec le développement des consciences écologiques et l'augmentation régulière des factures d'eau, trouver des astuces pour économiser l'eau chez soi devient impératif. En voici quelques-unes.

Économiser l'eau en arrosant les plantes le matin:

Il est préférable d'arroser les plantes au niveau des racines, tôt le matin ou en soirée pour limiter l'évaporation de l'eau. Privilégier des plantes peu gourmandes en eau et installer un récupérateur d'eau de pluie (une cuve autonome ou bien raccordée aux gouttières) est une solution. Pour garder l'humidité des sols, les espaces autour des plantes peuvent être paillés.

Salle de bains et WC : la douche plutôt que le bain:

La salle de bain et les WC sont un poste important des dépenses d'eau. Il est pourtant facile d'économiser plusieurs mètres cubes d'eau, en remplaçant un ancien modèle de toilettes par des WC à double débit, qui offrent le choix entre une chasse de 3 ou de 6 litres. La douche, de 20 à 60 litres, est à préférer au bain, d'environ 150 litres. De plus, installer des mitigeurs thermostatiquespermet de ne plus perdre de temps (et d'eau) à régler la température au robinet.

De l'électroménager à faible consommation énergétique et hydrique:

À l'achat de nouveaux appareils électroménagers, il est conseillé d'être attentif à leur consommation énergétique et hydrique. Lors de l'utilisation des lave-linge et lave-vaisselle, il vaut mieux qu'ils soient pleins pour les faire fonctionner. Pour encore plus d'économies, on peut installer des réducteurs ou économiseurs d'eau sur les robinets et pommeaux de douche : pour le même confort (puissance du jet), le débit utilisé est amoindri.

Couper l'eau quand on se brosse les dents:

Enfin, n'oublions pas de couper l'eau pendant le brossage des dents, le savonnage des mains ou le lavage de la vaisselle. De plus, restons attentif à la moindre fuite, en comparant les chiffres du compteur d'eau entre le matin et le soir.

إن قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام:﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ**﴾(هود:44)، يومي إلى ذم الإسراف في الماء، ويقاس على ذلك باقي عناصر البيئة، ويقوي ذلك قوله سبحانه:﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(141)**﴾(الأنعام)، قال عطاء بن أبي رباح في هذه الآية: "نهوا عن الإسراف في كل شيء"، وصوبه ابن جرير الطبري في تفسيره[1].

خاتمة:

يأبى هَمُّ البيئة وأشجانها إلا أن يكون حاضرا بقوة في "قمة الإليزي من أجل السلام والأمن في إفريقيا"، والمنعقدة بباريس يومي 6، و7 ديسمبر2013 وبمشاركة 53 وفدا إفريقيا، وفرنسا، وممثلي الأمم المتحدة، الاتحاد الإفريقي، الاتحاد الأوروبي، صندوق النقد الدولي، البنك العالمي، والبنك الإفريقي للتنمية.

إن ذلك الهم ترجم في البيان الختامي لتلك القمة؛ فنص على ضرورة السعي للحد من الارتفاع الحراري للأرض، كما دعت القمة إلى ترقية برنامج إيجابي لمجابهة التغير المناخي مع تهيئة كل الظروف، بما فيها التمويلية لإنجاح هذا البرنامج.

إن ذلك البيان لم يغفل دعوة كل الفاعلين إلى ضرورة مضاعفة الإجراءات، ومنها التشريعية التي ترمي إلى بلوغ الهدف العام المرجو بلوغه في المعاهدة التي ستنعقد بباريس سنة 2015(COP 21) حول التغير المناخي[2].

إن التشريعات، المعاهدات، المواثيق، الحملات الانتخابية وغيرها في المحافظة على البيئة وحمايتها بلغت حد التخمة، ومع كل ذلك لا يمر يوم إلا وتتعرض بيئتنا إلى مزيد من الأضرار؛ أضرار في الهواء، في باطن الأرض وظاهرها، في مياهها، في أنهارها، في بحارها ، محيطاتها، في غاباتها.

إن تلك الأضرار سواء الآنية أو الاستشرافية دفعت بـ "حقوق البيئة" أو قل "حقوق الأرض" إلى أن تزاحم"حقوق الإنسان" في المحافل، بل أصبحتا توأمين يذكران جنبا إلى جنب.

إن التحذيرات الصادرة من خبراء البيئة، ومن خبراء المناخ، ومن المنظمات المهتمة بالبيئة لم تلق بعد آذانا صاغية بما فيه الكفاية بدأ من صناع القرار، وانتهاء بالمواطن البسيط.

لقد آن الأوان أن يُلتفت إلى المشاعر، إلى العواطف، إلى القيم الإنسانية المشتركة، إلى الحس الأخلاقي، إلى استثارته، إلى تحفيزه، إلى تفعليه، وإلى الاستنجاد به، لعل كل ذلك يربي فينا الخوف على بيئتنا كالخوف على أنفسنا وأموالنا.

لقد آن الأوان أن تلقح تلك الترسانة القانونية والتشريعية بتركيز عال بحقنات أخلاقية؛ تملأ بشكر الخالق سبحانه، وتوفية أمانة الاستخلاف على وجهها، وتصبغ بالإحسان والرحمة، ويغرس فيها معان تذم الأذى والإسراف.

لقد آن الأوان أن تربى الأجيال على تلك المعاني السامية في رعاية البيئة، ولتحتضن المنظومة التعليمية، وخاصة في الأطوار الأولى برنامجا يرفع التربية إلى الصدارة، ولتتبع بزيارات ميدانية لعناصر البيئة حتى يشب الطفل على علاقة حميمية بها؛ فينشأ لديه حرص على حمايتها، ويدرك أنها ركن أساسي في بقائه، وبقاء كوكبه.

1 – أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، بدوت تاريخ)، 174/12، و176.

2 – www.elysee.fr، تاريخ المعاينة: 2013/12/07.

لا مناص من خوض هذه التعبئة؛ إنها ملاذنا في إنقاذ بيئتنا، في حماية صحة كوكبنا، بل في حماية بقاءنا على أرضنا، كما لا غنى أن يُفعّل دور الأسرة والمسجد، وسائر دور العبادة الأخرى، والوسائط الإعلامية بمختلف أنواعها في تكوين تربية بيئية؛ تكوين لا يفتر، لا يقتصر على المناسبات، بل وفق خطة ممنهجة متكاملة؛ واضحة المعالم والأهداف.

ثبت المراجع والمصادر

أولا: القرآن وتفاسيره:

- القرآن الكريم برواية حفص.
- أبو جعفر محمد **بن جرير الطبري**، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. القاهرة: مكتبة ابن تيمية، بدوت تاريخ.
- محمد متولي **الشعراوي**، تفسير الشعراوي. القاهرة: مطابع أخبار اليوم، بدون تاريخ.
- عبد الحق بن غالب **بن عطية** الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. بيروت: دار الكتب العلمية، 2001.
- محمد بن أحمد **القرطبي**، الجامع لأحكام القرآن. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2006.

ثانيا: السنة وشروحها:

- محمد بن إسماعيل **البخاري**، الجامع الصحيح. بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي**، السنن. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بدون تاريخ.
- أبو عبد الله **الحاكم** النيسابوري، المستدرك على الصحيحين. بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
- أحمد **بن حنبل**، المسند. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1995.
- سليمان بن الأشعث السجستاني **أبو داود** ، السنن. الرياض: بيت الأفكار الدولية، بدون تاريخ.
- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني **ابن ماجة**، السنن. القاهرة: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- **مالك بن أنس**، الموطأ. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1997.
- **مسلم** بن الحجاج القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح. الرياض: بيت الأفكار الدولية، 1998.
- علي بن خلف بن عبد الملك **بن بطال**، شرح صحيح البخاري. الرياض: مكتبة الرشد، 2003.
- عبد الله **بن أبي جمرة** الأندلسي، بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها شرح مختصر صحيح البخاري. بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ.
- أحمد بن علي **بن حجر** العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري. بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
- يوسف بن عبدالله **بن عبد البر** القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. المحمدية-المغرب-: مطبعة فضالة، 1982.
- أبو الطيب محمد شمس الحق **العظيم آبادي**، عون المعبود شرح سنن أبي داود. المدينة المنورة: المكتبة السلفية، 1968.

ثالثا: الفقه وقواعده:

- أبو القاسم بن أحمد البلوي **البرزلي**، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002.
- أبو عبد الله محمد **الحطاب**، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل. دار الفكر، 1987.
- أحمد **الدردير**، الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.
- أحمد بن محمد **الصاوي**، حاشية على الشرح الصغير للدردير. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.
- أبو عمر يوسف **ابن عبد البر**، الكافي في فقه أهل المدينة .بيروت: دار الكتب العلمية، 1987.
- عز الدين عبد العزيز **بن عبد السلام**، قواعد الأحكام في مصالح الأنام. بيروت: مؤسسة الريان، 1990.
- برهان الدين **بن فرحون**، درة الغواص في محاضرة الخواص. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985.
- أبو عبيد **القاسم بن سلام**، الأموال. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1981.

- أبو محمد عبد الله بن أحمد **بن قدامة**، المغني شرح مختصر الخرقي. الرياض: دار عالم الكتب، 1997.
- أحمد بن إدريس **القرافي**، أنوار البروق في أنواء الفروق. بيروت: عالم الكتب، بدون تاريخ.
- أحمد بن إدريس **القرافي**، الذخيرة. بيروت: عالم الكتب، بدون تاريخ.
- أحمد بن غنيم **النفراوي** الأزهري، الفواكه الدواني شرح على رسالة ابن أبي زيد القيرواني. بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
- أبو زكريا يحي بن شرف **النووي**، روضة الطالبين. الرياض: دار عالم الكتب، 2003.
- أحمد بن يحي **الونشريسي**، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981.

ثالثا: البيئة، أخلاق، وتزكية:

- فؤاد عبد اللطيف **السرطاوي**، البيئة والبعد الإسلامي. عمّان: دار الميسرة، 1999.
- يوسف **القرضاوي**، رعاية البيئة في شريعة الإسلام. القاهرة: دار الشروق، 2001.
- عبد الرحمن حسن **حبنكة** الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها. دمشق: دار القلم، 1999.
- محمد **الغزالي**، خلق المسلم. القاهرة: نهضة مصر، 2005.
- محمد بن أبي بكر **ابن القيم الجوزية**، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1999.

ثالثا: الحضارة:

- محمد **الفاضل بن عاشور**، روح الحضارة الإسلامية. الرياض: دار العالمية للكتاب الإسلامي، 1992.
- مالك **بن نبي**، شروط النهضة. دمشق: دار الفكر، 1986.

ثالثا: المجلات:

- عبد القادر بن عزوز، "مدى مشروعية الوقف على الحيوان في الفقه الإسلامي"، **مجلة أوقاف**، العدد 16 (مايو، 2009).
- عبد الله الّداودي، "كتاب الإعلان بأحكام البنيان تصنيف المعلم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي، شهر بابن الرامي التونسي"، **مجلة الفقه المالكي والتراث القضائي بالمغرب**، الأعداد: 2، 3، 4 (سبتمبر، 1982).
- دانيال هورنويج، پريناز بهادا–تاتا، وكريس كنيدي "يجب وقف نمو معدلات النفايات في هذا القرن"، **مجلة NATURE**–الطبعة العربية–، العدد 15 (ديسمبر، 2013).
- **مجلة NATURE**–الطبعة العربية–، العدد 14(نوفمبر، 2013).

رابعا: مواقع الانترنت

- www.dossierfamilial.com
- www.elysee.fr
- www.futura-sciences.com
- www.globalcarbonproject.org
- www.lemonde.fr
- www.nature.com
- www.vedura.fr